الدراسات المستقبلية في الفكر العربي الحديث والمعاصر

د.مجدي فارح
جامعة تونس

المقدمة

أصبحت الدراسات المستقبلية أو علم المستقبل أو المستقبليات في الألفية الثالثة من أبرز مفاعيل التغيير والتنمية والتقدم ومن ثمة الاستجابة الناجعة لتحديات المستقبل المتنوعة والمتسارعة الوتائر داخل المجتمعات المعاصرة، وذلك في ظلّ المتغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في بُنى المجتمعات الفكرية والثقافية. أثارت المتغيرات المتسارعة والمستجدات الطارئة التي يشهدها العالم في العقود الأخيرة، كثيراً من علامات الاستفهام والتساؤلات عما سيكون عليه مستقبل المجتمع الإنساني، وفي هذا الإطار برزت الدراسات المستقبلية، بوصفها ميداناً من ميادين المعرفة يزداد الاهتمام به، لاسيما فى الدول المتقدمة، ويترسخ دوره فى عملية صنع القرارات سواء على مستوى الدول أو على مستوى مؤسسات وجمعيات ومنظمات المجتمع المدني. عرف ميدان الدراسات المستقبلية، ولا يزال، تطورات متلاحقة فى منهجياته وأساليبه وتطبيقاته حتى صارت له مكانة مرموقة بين سائر ميادين المعرفة [1] .

رغم أنّ الدراسات المستقبلية حاضرة في الفكر العربي الحديث والمعاصر إلا أنّها ظلّت محدودة، ولعل ندرة المراكز المتخصصة في الدراسات المستقبلية في بلادنا العربية شاهد على ضعف العمل بالدراسات والنظريات المستقبلية، في مقابل التكاثر الهائل لتلك المراكز في الغرب المعاصر[2].

[1] إبراهيم العيسوى، الدراسات المستقبلية ومشروع مصر 2020، منشورات مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام، القاهرة،http://acpss.ahram.org.eg/ahram/2001/1/1

[2]محمود عبد الفضيل، "الجهود العربية في مجال استشراف المستقبل "نظرة تقويمية"، عالم الفكر المجلد الثامن عشر ، العدد الرابع، يناير–مارس 1988، ص ص 51–72

إنّ حضور سؤال المستقبل في أية ثقافة هو دليل حيويتها، فبقدر حضوره في تكوينها الفكري تتحدد قابليتها للتطور، وقدرتها على التقدم. إنّ الوعي المستقبلي يقيس على الحاضر في حركته إلى المستقبل، ولا ينشغل بالماضي إلا بوصفه عنصرا من عناصر الحاضر الذي يقبل التحول والتطور والمساءلة. وسؤال المستقبل عنصر تكويني في هذا الوعي وعلامة عليه، سواء في حرصه على الارتقاء بالإنسان من مستوى الضرورة إلى مستوى الحرية، أو الانتقال بالمجتمع من التأخر إلى التقدم[1]. من المؤكد أنّ الاهتمام بالمستقبل لا يعني نفي الماضي، فالذي يحسن فهم حاضره يهيئ لمستقبله بقدر ما يحسن توظيف ماضيه. وتلك هي المعادلة التي تتيح صوغ العلاقة بين الأزمنة بصورة متوازنة وراهنة وهو ما يتيح التحرّر من التهويمات الايديولوجية والمتاريس التراثية التي تجعلنا أسرى ماض يستحيل أن يعود كما كان عليه، كما يتيح تجنب الاغتراب والذوبان في ثقافة الآخر الغربي[2].

يرتبط طرح اشكال الدراسات المستقبلة في الفكر العربي الحديث والمعاصر بضرورة التأريخ لهذا الفكر وموقعه من الزمن والتاريخ. وقد ارتبط مفهوم المستقبل عند العرب بمعجم لغوي ورمزي متعدد ومتنوع من قبيل: الأيام، الدهر، الحال، الزمن، الغد، الغيب. كما يطرح السؤال العربي للمستقبل في علاقة عضوية بالتاريخ وبجملة من المطالب السياسية والفكرية والحضارية[3]. ولذلك تبحث هذه الورقة في ارتباط الفكر العربي في كل أجهزته ودلالاته وآلياته وتياراته وتصوراته أدبا وفنا واقتصادا و سياسة وفلسفة واجتماعا وتاريخا وعلما وتقنية بالمستقبل. ولكن الاشكال المطروح أنّ أسئلة الفكر العربي للمستقبل ظلّت تؤثثها اشكاليات أو ثنائيات لم يقع الحسم فيها بعد معرفيا وسياسيا وتاريخيا من قبيل الحداثة/التقليد، المعاصرة/ الأصالة، التقدم/التأخر، الاستقلال/ التبعية، الاستبداد/الديمقراطية، الأنا/ الآخر، العقل/ النقل وهي اشكاليات شمولية هيكلية مترابطة تمس كل عناصر الحركة والتفكير والعلاقات الفردية والجمعية في الكيان العربي[4].

---

[1] وليد عبد الحي، مدخل إلى الدراسات المستقبلية في العلوم السياسية، المركز العلمي للدراسات السياسية، عمان2002.ص.64.

[2] انظر: سعد الدين ابراهيم وآخرون، صور المستقبل العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1982.

[3] للمزيد من التفاصيل انظر: قسطنطين زريق، مطالب المستقبل العربي: هموم وتساؤلات ، بيروت، دار العلم للملايين، 1983، يوسف الحوراني، "فلسفة التاريخ ومستقبلها في الفكر العربي"، الفكر العربي المعاصر، العدد 12، 1981، ص.ص. 57–68.

[4] أحمد جدّي، *محنة النهضة ولغز التاريخ في الفكر العربي الحديث والمعاصر*، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2005، ص.ص.166–175.

تبحث هذه الدراسة في الاستراتيجيات المستقبلية التي طرحتها النخب العربية منذ بدايات عصر النهضة والإصلاح إلى اليوم من خلال عينات مخصوصة من الكتابات التي أراد لها أصحابها أن تكون ثورة على واقع عربي معطل سمته الكبرى تاريخ معطب أو غير مكتمل لم يعرف فيه العرب طعم الاستقلال الحقيقي ومعنى الحرية الكامل ولحظة التقدم التاريخي بعد الحروب والأزمات وهدر الكثير من الطاقات المادية والرمزية خاصة في ظلّ غياب التنمية المستدامة والعدالة الاجتماعية والديمقراطية التي هي السبيل الوحيد لمشاركة الأمة في صنع مستقبلها[1].

1- الدراسات المستقبلية: ماهيتها وحضورها في الفكر العالمي

نشأ علم المستقبل أو الدراسات المستقبلية كحقول معرفية حديثة في خضم الديناميكية التي عرفها الغرب المعاصر[2]. لقد حدث في الغرب المعاصر تراكم معرفي هام في حقل البحث المتعلق بالمستقبليات يربط بالضرورة بين التاريخ ودراسة المستقبل والعلم السياسي والعلم التكنولوجي في عالم الغد اعتماداً على نقد ومعرفة حدود التنمية في العالم المعاصر. لقد أدرك الغرب أهمية دور الدراسات المستقبلية وتأثيرها في العالم لأنّ الحضارة المعاصرة حضارة كونية علمية تقنية باختلاف أنماط تنمية المجتمعات وتجاربها التاريخية، فالدراسات المستقبلية تشمل، من هذه الناحية، كل المعمورة شرقها وغربها وشمالها وجنوبها.

إن المتتبع للعديد من الكتابات التي تتناول الدراسات المستقبلية يمكن أن يلاحظ قدراً من الخلط الواضح بين عدد من المفاهيم المتداخلة في هذا الإطار، حيث يتم التعامل، بطريقة غير صحيحة، مع الدراسات المستقبلية والوعي بالمستقبل والتخطيط له والتفكير الاستراتيجي والرؤية المستقبلية و غيرها من مفاهيم ذات صلة كأنها ترمز إلى المعنى ذاته. فعلى الرغم من الصلة الوثيقة التي تربط هذه المفاهيم ببعضها البعض، إلا أنه لا يجب أن يتم التعامل معها جميعاً بوصفها تجسيداً للمفهوم نفسه، وتفسير ذلك أن وجود مشروعات تخطيطية على سبيل المثال لا يعني بالضرورة وجود رؤية إستراتيجية من ناحية أو رؤية مستقبلية

[1] نفس المرجع، ص.10.

[2] غازي الصوراني، الوضع العربي الراهن وآفاق المستقبل،27 يناير 2007، http://www.doroob.com

من ناحية أخرى[1]. كما أنّ توفر موارد طبيعية هامة وثروات باطنية ضخمة لا يعني بالضرورة توفر قدرات استراتيجية مستقبلية يمكن المراهنة عليها على المدى الطويل. وهنا يظهر سؤال حول ماهية النظرة المستقبلية الامثل في عالم لا يتحكم في شؤون مستقبله؟

أحدهم يضع العامل الديمغرافي في الصدارة والآخر يتحدث عن الطاقة والآخر عن التقنية والبعض الآخر عن الموارد البشرية والقدرات الابداعية. من شان هذا التنافر ان يطرح عديد الاستشكالات من قبيل: هل ثمة عامل سائد، ألا توجد أبعاد متعددة للحقيقة وللمستقبل، وبالتالي هل ثمة نوع من التضافر يجعل العناصر تتساند ويشد بعضها البعض؟ على أية حال ما يمكن ملاحظته أن التطورات الحديثة للفكر لن تكون بمعزل عن تطورات العلوم الاجتماعية والاقتصادية بصورة أشمل عن السياق المتعدد الأبعاد للمستقبل[2].

امتدّ البحث والحوار في الغرب المعاصر حول إشكالية المستقبل كعوالم مختلفة وجب الاعداد لها معرفياً وعلمياً وسياسياً، فالمسألة مرتبطة بنمط الحداثة البرجوازي الغربي الذي أفرز تناقضاته وحدوده بشهادة الغرب ذاته، من هذه الناحية، وجب التأكيد على أن الغرب لم تصدمه الحداثة فقط بل المستقبل كذلك باعتباره شرطاً وبعداً عن مساره التاريخي، لذا التزم بدراسة المستقبل وأصبحت الكتب والمؤلفات تزخر بالدراسات المستقبلية من محاور وملامح البحوث العلمية والأكاديمية الأساسية في المجتمع الغربي. إن دراسة المستقبل في العالم الغربي، تعتمد على معطيات علمية وديموغرافية واقتصادية وسياسية مندرجة في نسق معين، فيمكن القول بأن دراسة المستقبل هي في حقيقتها استشراف للمستقبل بجميع أبعاده الزمنية، أي جملة تنبؤات مشروطة تشمل المعالم الرئيسية لأوضاع مجتمع ما في مرحلة من مراحله التاريخية، وتنطلق هذه الاجتهادات والدراسات لفهم معالم وصور المستقبل من افتراضات عديدة خاصة بالماضي والحاضر ولاستكشاف أثر دخول عناصر مستقبلية على المجتمع. من الواضح إذن أنّ المسألة مشروطة بأجهزة متطورة وإمكانيات وافرة وكفاءات عالية وفلسفة سياسية واجتماعية متكاملة ولازمة لتخطيط هيكلي ديناميكي مميز، ولابد من الإشارة هنا إلى أن مصطلح المستقبلية Futurologie هو الشائع في الغرب الرأسمالي وظهر ليعني التبشير ببعض عناصر وجزئيات صور المستقبل المرتبط بالثورة العلمية والحداثة التكنولوجية[3].

---

[1] الموسوعة الحرة (وكيبيديا): عالم مستقبليات (الدراسات المستقبلية العربية : اتجاهات وملامح أولية)، http://ar.wikipedia.org،2009

[2] مارسيل كولمب، المستقبل، ترجمة وديع حنا، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1984م، ص10.

[3] أحمد أبو زيد، الحاجة إلى استشراف المستقبل،2009، http://www.balagh.com

لقد أدت مجموعة من التحولات العميقة في هياكل وأفق وعلاقات المجتمع الغربي في فترة ما بعد الثورة الصناعية إلى تزايد الاهتمام بعلم المستقبل في الفكر الغربي المعاصر الذي أدرك أنّ العولمة قد جعلت من العالم فضاء جغراسياسيا دون حدود[1]. ومن ثمة دفع الاهتمام المتزايد بعلم المستقبليات باتجاه حدوث تراكم معرفي في هذا المجال البحثي في الفكر الغربي وذلك في علاقات متشعبة ارتبطت بالعلم والتكنولوجيا الدقيقة وبالتاريخ والمستقبل اعتمادا على النقد لتحقيق التنمية الشاملة[2]. واكب ظهور علم المستقبليات الثورة المعرفية والتكنولوجية واستفاد منها ووظف أدواتها ووسائلها في سبر غور المستقبل واستشراف آفاقه، ومن ثمة تحول الى علم حديث.

ارتبط علم المستقبليات في الغرب باستشراف صور وسيناريوهات المستقبل وبالثورة العلمية والحداثة التكنولوجية[3]. وقد تعددت المدارس والنماذج الفكرية للدراسات المستقبلية متباينة في المنطلقات والمناهج والبرامج. والملاحظ أنّ العالم العربي الاسلامي قد احتلّ مكانة متميزة في الدراسات الاستشرافية المستقبلية في الغرب نظرا لأنّه مخزن النفط والوقود على المدى الطويل[4]. هكذا اذن انخرط العرب في الدراسات المستقبلية وكانوا احدى قضاياها ومواضيعها المركزية واهتماماتها الأولى. إن للدراسات المستقبلية ثقافتها الخاصة بها التي لايمكن ان تظهر خارجها، وهي بطبيعتها ثقافة تمتد بجذورها الى عصر التنوير والعقلانية والتحرر من القوالب الجامدة والانغلاق داخل أطر فكرية مقدسة التي تقيد المبادرة وتعوق التجديد وتصادر الابداع وتحبس الخيال وتجهض التفكير النقدي. إذا كان الغرب قد تجاوز الاهتمام بالماضي والحاضر مركزا الجهود على المستقبل كبعد من ابعاد الزمن والحاضر في آن واحد فماذا عن موقع الدراسات المستقبلية في الفكر العربي الحديث والمعاصر؟

[1] Lester R.Brown, *World without borders*, New York, Random House, 1972.

[2] Arthur B. Bronwell, Ed, *Science and Technology in the world of the Future*, New York, Wily-Interscience, 1970.

[3] أحمد جدي، مرجع سابق، ص.163.

[4] M.Abd Arrahman, *Concepts and Practice of Future Studies Using Models in the Arab Region*, Beirut, Office of Education, 1980.

2- موقع الدراسات المستقبلية في الفكر العربي الحديث والمعاصر

في الواقع نجد أنّ الفكر العربي المعاصر لم يتخلص بعد من أسئلته المصيرية والتاريخية ضمن علاقات مميزة بشروط وآليات حركته العامة، ومن هذا الجانب، ينهض السؤال العربي للمستقبل، والذي يظهر في حقول ميادين معرفية غنية ومتنوعة، لعل أكثرها ظهوراً الفلسفة والعلم وفلسفة التاريخ والتاريخ وعلم المستقبل والاقتصاد السياسي وعلم الاستراتيجيا[1]. هكذا يبدو لنا سؤال الفكر العربي والمستقبل سؤالاً وجودياً قبل أن يكون معرفياً وسياسياً، منطلقه الوعي النقدي باعتبار الوعي والنقد إستراتيجية التغيير والمستقبل، ومن هنا كان على الفكر العربي المعاصر بكل آلياته وأدواته أن يدخل عالم المستقبل بحثاً عن موقع مميز فيه، فتعددت مجالات ومحاور دراساته انطلاقاً من الجدليات التي أرّقت التاريخ العربي وأقحمته في مأزق ثنائيات متضاربة من قبيل: جدلية الداخل، والخارج، جدلية الدين والسياسة، جدلية السلطة والمجتمع، جدلية الثقافة والتاريخ إلى فضاءات الدولة والمجتمع في الوطن العربي، العرب والعالم، العرب والمستقبل، التنمية العربية، التحديات البدائل المستقبلية.

إلى جانب ذلك، فإنّ علاقة الفكر العربي بالمستقبل هي علاقة الماضي بالحاضر والماضي بالمستقبل والحاضر بالمستقبل من هنا، تصبح جملة هذه العلاقات جدليات لإشكاليات ثابتة ومتحولة في الفكر والمجتمع والتاريخ، فالفكر العربي على اختلاف مرجعياته وتباين اتجاهاته وتنوع آلياته ومضاعفاته، منخرط بالضرورة في أنساق ومسالك الفكر السياسي والاقتصادي والاجتماعي والفلسفي والعلمي في الحضارة والعالم المعاصرين[2]. لذا فولادة السؤال: الفكر العربي وإشكالية المستقبل مشروط معرفياً وسياسياً وتاريخياً بنوعية علاقات المجتمع العربي الإسلامي بذاته وبالآخر. فلم يعد سؤال لماذا تقدم الغرب وتأخر الشرق؟ ميزة الفكر الاصلاحي العربي فحسب بل أصبح العلامة المميزة للمأزق التاريخي العربي في العهدين الحديث والمعاصر بعد أن أصبح الغرب هو الذي يفكّر ويخطّط ويقرّر وينفذ، ونحن العرب نتحرّك في حدود الهامش المتبقيّ لصياغة ردود فعل غالباً ما تأتي متأّخرة وغير نافعة . ولذلك فإنّ اشكالية الأنا والآخر[3] هي

---

[1]انظر سعد الدين إبراهيم (وآخرون)، صور المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1982م، ص119.

[2]أحمد جدّي مرجع سابق، ص. 166.

[3]حسن حنفي، "جدل الأنا والآخر: دراسة في "تخليص الإبريز للطهطاوي"، من كتاب صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، تحرير الطاهر لبيب، مركز دراسات الوحدة العربية والجمعية العربية لعلم الاجتماع، الطبعة الأولى، 1999.

عينها اشكالية النهضة وسؤال التقدم والمستقبل. ظلّت المقارنة بين تخلّف الأنا وتقدم الآخر تتكرر في تضاعيف الفكر العربي الاسلامي المعاصر مرة بالمماثلة، فالغرب نمط التحديث عند رواد الفكر العربي ومرة بالاختلاف بين ما أدركه الغرب من تقدم وراهن حال العرب. فالمسار التاريخي الذي سارت عليه الأمور منذ بدايات الاتصال بالغرب الكولونيالي وبمقولاته التنويرية، منذ حملة نابليون على مصر، أوصلنا راهنا إلى نقطة لا يوجد فيها توفيق أو مصالحة، فنحن اليوم لا نسأل عما نختار من هذا النموذج او ذاك من الموروث والوافد لأنّنا "كنّا في الماضي نقف على أرض الموروث ونتحاور فيما يصلح لها من حضارة الغرب وأدواته لندخله عليها. ثم صرنا أو صارت كثرتنا تقف على أرض الوافد أو أرض خليط ونتحدّث عن التراث بضمير الغائب ونتحاور فيما نستحضره فيه، نحن نتساءل الآن عما نستدعي من التراث بعد أن كان آباؤنا يتساءلون عما يأخذون من الوافد"[1].

يتجسد الصراع في إطار الفكر العربي، بين الحاضر والمجهول، أو بالتعبير الاصطلاحي بين الواقع الراهن والمستقبل، انطلاقاً من عمق الأزمة التي يمر بها العرب في مستوياتها العديدة، لذلك ظهرت أسئلة ملحة وعناصر إجابة مختلفة ومناهج متباينة محورها العرب والمستقبل، أي كيف ينظر الفكر العربي إلى المستقبل؟

ركزت الدراسات المستقبلية في الفكر العربي الحديث والمعاصر، على قلتها ومحدوديتها، على قضايا الحداثة والعقل والتنمية والفلسفة والثورة العلمية والأنساق الاقتصادية المعرفية والحركات الاجتماعية، وقد عني بها عدد هام من المختصين وغير المختصين في جميع مجالات المعرفة والعلوم والإبداع. ومن هنا جاءت جملة الأدوات المعرفية والأسئلة الضرورية لانخراط الفكر العربي بالمستقبل والمساهمة في نحته طبقاً لقوانين التاريخ والصراع الاجتماعي ولوازم الحضارة البشرية. إذاً نلاحظ بأن كل المؤشرات، المكتوبة والمنطوقة والمسكوت عنها، في إطار هذا الفكر تدل على توجه العقل العربي بكل إ رهاصاته وتراكماته وأوهامه نحو المستقبل وشروطه[2].

---

[1] طارق البشري، "نحن بين الموروث والوافد اشكالية العلوم الاجتماعية في الوطن العربي"، بيروت، دار التنوير، 1983، ص.358. ونشرت أيضا في المستقبل العربين السنة الخامسة، عدد 58، ديسمبر ، 1983.

[2] عبد الله بن محمد السهلي، المنطلقات الفكرية لمنهج الدراسات المستقبلية في الإسلام: نحو مساهمة إسلامية حضارية في توجيه الدراسات المستقبلية في المنظومة الغربية، 25 مايو 2009م، http://www.wasatyea.org

ظلّ الإنسان العربي محاصراً بأسئلة القرن التاسع عشر، يكررها ويستعيدها ويدور حولها في حلقة مفرغة، فلم يُحسم الى الآن أي سؤال من أسئلة عصر النهضة، من سؤال التنمية والعلم إلى سؤال الحرية السياسية والعدالة الاجتماعية، فضلاً عن الأسئلة المتعلقة بالمواطنة ودور المرأة وحقوقها السياسية والاجتماعية[1]. تطارحت النخب العربية منذ فجر النهضة العربية إلى اليوم أسئلة كثيرة من مواقع مختلفة تبحث في سبل التحرر من بؤس الحاضر لبناء المستقبل من قبيل: ما هي أسباب ضعف الشرق حتى يتمكن الغرب من اجتياحه والتغلب عليه؟ كيف يكون التعامل مع الغرب؟ ما هي أفضل السبل للخروج من حالة الركود والانحطاط والجهل والتخلف إلى حالة الحركة والتقدم والعلم والقوة؟ هل نصلح المجتمع بالعلم أم بالدين؟ ما موقفنا من النظام السياسي السائد ؟ هل نصلحه أم نستبدله بنظام آخر؟ هل نحافظ في المستقبل على الخلافة الإسلامية والثقافة الدينية أو نؤسس مجتمعات قومية علمانية؟

باختلاف أسئلة العرب للمستقبل تتشعب الأجوبة لتعبر عن مواقف فكرية ظلّ جلّها ارتجاليا دون تحليل وتمحيص للواقع العربي الاسلامي بل أنّها كثيرا ما جمعت نثارها من مناهج ومدارس مختلفة إلى حدّ التقاطب ورددت مقولات متنافرة من قبيل أنّ الاسلام هو الحلّ أو أنّ الماركسية هي الطريق المثلى والقومية هي الملاذ أو أنّ الليبرالية هي الخلاص والدولة الوطنية هي المخرج أو أنّ التمسك بالهوية هي الأساس والانفتاح على الغرب هو السبيل الوحيد للتقدم[2].

تطرح كل هذه الاستشكالات لأنّنا كثيرا ما نقف في أعمال روّاد النهضة العربية على علاقات متوترة ومضطربة مع قضايا التاريخ العربي والغربي، على حدّ السواء، فهما وتحليلا وتفسيرا وتأويلا، وذلك لأسباب حضارية معرفية بنيوية وتاريخية، لتظلّ هذه الأعمال منخرطة في صراع سيزيفي عبثي مع مقولات لا تزال تدور في فلك ثنائية المركز والهامش. فلماذا لم يتصالح العرب مع التاريخ ليكونوا فاعلين ومتفاعلين مع حركة الحداثة الكونية لا منفعلين تابعين أو مجرد متفرجين؟ لماذا لم يخرج العرب المسلمون من فلك الغرب بما هو صانع للنهضة والحداثة وما بعد الحداثة؟ وهل يباشر العرب في هذا القرن مواجهة فعلية مع هذه الأسئلة التاريخية، تؤسس لنهضة عربية شاملة تفتح أمامهم سبل التقدم والانخراط في بناء المستقبل؟

---

[1] كثيرة هي الأعمال التي تناولت الأزمة في مظاهرها المختلفة في المجتمع العربي الإسلامي: انظر مثلا: عبد الحميد متولي، أزمة الفكر السياسي في العصر الحديث: مظاهرها، أسبابها علاجها، الإسكندرية المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر، 1970.

Abdallah Laroui, La crise des intellectuels arabes : traditionalisme ou Historicisme, Paris : Maspero, 1974.

[2] حسن حنفي، "موقفنا الحضاري"، دراسات فلسفية، القاهرة مكتبة الأنجلو المصرية، 1987، ص.ص. 9–50.

ولدت أسئلة العرب للمستقبل المتعلقة بتحديات الحداثة والعقلانية وإشكاليات التقدم والتمدن وقضايا القومية والمواطنة ومسائل التنمية الاقتصادية ومطالب العدالة الاجتماعية والحريات السياسية في منتصف القرن التاسع عشر، ولم تكن الولادة في مجتمع متخلف ومستعمر معا يسيرة، ذلك أنّ المجتمع المتخلّف ينصُر القول الذي ينسجم معه[1]. لقد أحدث الاحتكاك بالغرب صدمة عندما اكتشف العالم الإسلامي ضعفه التقني والعسكري أمام الغرب، وهكذا تيقن العرب المسلمون أنّهم أصبحوا على هامش الغرب، على الصعيد الاقتصادي والعلمي والتقني وكل المجالات التي يشير إليها مفهومهم عن التمدن[2].

لقد أدى اضطراب الأسئلة إلى المزيد من القلق والتوتر والالتباس في العلاقة بين الماضي والمستقبل، بين التراث والفكر العربي الحديث والمعاصر، بين الأنا والآخر، مما جعل العلاقة لا تقوم على الاتصال ولا على الانفصال وإنما على التنافر والتدافع والنتيجة تشويش الحلم النهضوي وأفق ارتياد المستقبل في وعينا وتعتيم الرؤية في فكرنا وإدامة طرح الأسئلة وتواصل عتمة المستقبل في ظلّ اضطراب الأجوبة[3]. لقد تمخضت عن واقع هذه العلاقة المحكومة إلى حد بعيد بالآخر، جملة من المظاهر التي ما فتئت تظلل بنية الخطاب الثقافي العربي الحديث والمعاصر عامة، والخطاب النقدي العربي منه على نحو خاص، منها:

– فقدان الخطاب الثقافي العربي ثقته بنفسه وباستقلاله، واعتماده اعتماداً كبيراً على تجربة الآخر كنموذج وحيد للتمدن والرقي ومحاكاته محاكاة ساذجة وهو ما أدى إلى فقدان هذا الخطاب فاعليته التاريخية ومرد ذلك افتقار هذا الخطاب إلى القدرة على الحوار الجدلي الخصب مع ثقافة الآخر وطمس الإمكانات الذاتية الكامنة فيه[4].

---

[1] جورج طرابيشي، المثقفون العرب والتراث: التحليل النفسي لعصاب جماعي، لندن، رياض الريس، 1991، ومحمد عابد الجابري، نحن والتراث: قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، بيروت، دار الفارابي، 1980.

[2] جوزف حجار، أوروبا ومصير الشرق العربي: حرب الاستعمار على محمد علي والنهضة العربية، ترجمة بطرس الحلاق وماجد نعمة، مراجعة حسن فخر، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1976، .ص.ص. 8–9.

[3] Abdallah Laroui, La crise des intellectuels arabes : Traditionalisme ou historicisme, et l'Idéologie arabe contemporaine : Essai critique, préface de Maxime Rodinson, Paris, Maspero, 1973.

[4] منير الخطيب، "المجتمع العربي: أزمة تقنية أم أزمة نهضوية"، الوحدة، العدد 55، 1989، ص.ص. 159–160.

– عجز هذا الخطاب عن مطاولة خطاب الآخر واتخاذه شكل رجع صدى له وهو ما أدى إلى انتاج منظومة من القيم والمشاعر تتمحور حول إحساس متلقي هذا الخطاب بالدونية خاصة في ظلّ فشل هذا الخطاب في خلق ظروف استنبات ملائمة للمعطيات المنهجية في المشهد الثقافي العربي، ضماناً لتحقيق فاعليته وامتلاك شرعية الاستمرار والتطور.إن العيش على تخوم خطاب الآخر ومعطيات بنيته المعرفية لا بد من أن يقود في نهاية الأمر إلى ضرب من ضروب التبعية لتجربة الآخر، ولهيمنة نموذجه المركزي، ما دامت العلاقة غير متكافئة. لقد أدّى عمق الهزيمة الحضارية مع الغرب الى نشوء وعي مشوّه، لم ينظر إلى الاستبداد بوصفه ركن الانحطاط، بل اعتبر أن الدين هو سبب هذا الانحطاط، فولد أزمة هوية لم تتمكن الهوية الوطنية والقومية من تجاوزها. وتحوّل الاستبداد الفكري والسياسي إلى مشروع لنهضة الأمة عبر القومية العلمانية المفروضة من نخب تقطعت وانقطعت عن الفئات الشعبية، فتحولت المجتمعات العربية الاسلامية إلى مجتمعات بطريركية حديثة، وظفت فيه الدولة المثقفين من أجل إنتاج أيديولوجيا استبدادية شعبوية، تبيح تدمير المجتمع[1].

على هذا النحو يصبح إطلاق الفكر العربي من أسر أو مأزق الأنا والآخر شرطا لازما من شروط تحرر هذا الفكر وامتلاكه أسباب نهوضه ونجاحه في صناعة مستقبله بطرق ناجعة ومستقلة. لكن إعادة الفكر العربي النظر بهاتين المرجعيتين لا ينبغي أن يفضي بنا إلى تزييف وعينا، باختيار بديل يلجأ إلى ضروب من الانتقاء والمواءمة غير الحقيقية. إن مفتاح تصحيح علاقة الخطاب الفكري العربي بالثنائية المرجعية للأنا والآخر والتحرر منهما، إنما يكمن في مدى القدرة على تأسيس وعي حقيقي بهما. فالحداثة تفكر في ذاتها تفكيرا تاريخيا لا تفكيرا أسطوريا كما يقول بودريار[2].

بهذا المعنى نجد أن السؤال العربي للمستقبل مطروح في علاقة عضوية جدلية بالتاريخ وبمطالبة فكرية سياسية حضارية اجتماعية عديدة[3]، وبتحديات العصر منظوراً إليها من عدة زوايا، فالفكر العربي المعاصر الذي يعمل على تأسيس وظيفي ومعرفي للمستقبلية كعلم قائم بذاته يواصل تحاليله، وحفرياته

---

[1] برهان غليون، اغتيال العقل: محنة الثقافة العربية بين السلفية والتبعية، بيروت، دار التنوير، 1986، هشام شورابي، البنية البطريكية، بيروت، دار الطليعة، 1987.

[2] مطاع صفدي، نقد العقل الغربي: فلسفة الحداثة ما بعد الحداثة، بيروت، مركز الانماء القومي، 1990.

[3] قسطنطين زريق، مطالب المستقبل العربي، دار العلم للملايين، بيروت، 1983م، ص37.

لعلاقات المستقبل بالتراث[1] والهوية والنهضة والحداثة[2]، انطلاقاً من تعدد عناصر وتأويل الماضي والحاضر في الفكر العربي الإسلامي عموماً بعلاقته بالمستقبل[3]. من هذه الأرضية المركزة والمعقدة وذات التراكمات الكبرى، انخرط الفكر العربي، من أجل دراسة المستقبل، في تحليل خطاب النهضة والسلطة والحداثة والتقدم والمستقبل. وكان الغرب، ولا يزال، في كل ذلك حاضراً فكراً ومنهجاً، فعلامات الاستفهام حول المسار والمصير والوجود مجسمة في سؤال عن اتجاه ومعنى التاريخ العربي مرتبطاً بالمشروع الحضاري العربي.

تطارحت النخب العربية أسئلة كولونيالية من قبيل ما سرّ تقدم الغرب ماهو الطريق إلى اللحاق به؟ ولكنّها لم تسأل أبدا ماهي القوى الاجتماعية القادرة على انجاز هذه المهمات؟ ولقد جاءت أجوبتها خارج الواقع وعلاقاته الداخلية، أجوبة تارة يقدمها الغرب وطورا يقدمها التراث ومرة يقدمها التوفيق بين الماضي والحاضر. كان الحاضر مقلقا مثقلا بالهزائم خال من أي قوة داخلية قادرة على تحريكه ومن ثمة جرى البحث عن من يحركه من الخارج أي من الغرب الذي يقدم الأفكار والأنموذج. لم يقرأ الفكر العربي المعاصر فكر النهضة في تاريخيته بل اكتفى باتهام الفكر النهضوي في أطواره المختلفة بالتبعية أو الاغتراب كما لو أنّ "الاعتراب" بلغة العروي، أي الهروب الزائف من الزمن العالمي إلى روح العروبة هو الشرط اللازم لتجاوز التخلّف. والحال أنّ الاغتراب الثقافي في الزمن العالمي مطلوب لقراءة الفكر العربي بأدوات من خارجه أكثر حداثة وتقدّما ومطلوب لمقارنة المجتمع العربي المهزوم بمجتمعات انتصرت أو بأخرى لم تستسغ الهزيمة، ولكنّه يظل مرفوضا إذا اختزل إلى محاكاة صمّاء[4].

لم يعرف العالم العربي الاسلامي الحديث والمعاصر منذ بدايات اتصاله بالغرب قطائع هيكلية متجذرة لا على صعيد الفكر ولا على صعيد البنية الاجتماعية. وبقي الماضي يمارس سلطته بقوة. وهنا يكون دور المثقف الحداثي مرتبطا بالدفاع عن قيم العصر بشكل إيداعي، بعيدا عن عدد من الأطروحات من قبيل تجديد الماضي والتراث. وكل ممارسة نظرية من داخل التراث أو باسمه، فهي لا تمثل إلا إعاقة الفهم للحداثة نفسها كإشكالية وكإرادة انسانية في المعرفة النوعية. فالحداثة إذن مشروع يتطلب البناء وفق أسس

---

[1]عبدالله العوري: قضية التراث والانبعاث الحضاري –الفكر العربي المعاصر– عدد 12، بيروت، 1981م، ص18–25.

[2]مطاع صفدي، الحداثة ما بعد الحداثة، الفكر العربي المعاصر، عدد 45–55، بيروت 1988م، ص4–16.

[3]محمد عابد الجابري، المشروع الحضاري بين فلسفة التاريخ وعلم المستقبلات– الوحدة، عدد 6، بيروت، 1985م، ص7.

[4] محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1988.

فلسفية إبداعية ووفق نظرة جديدة للكون والحياة والإنسان، وللاقتصاد والمجتمع والثقافة، ويمكن القول بأن المثقف العربي ما زال يتعامل بالانتقائية الايديولوجية والنظرة التجزيئية لكثير من المسائل الحيوية المتصلة بحاضره ومستقبله، وحتى حضور ديكارت وكانط وفيبر داخل خطابه لم يكن إلا لتشريع إيديولوجيا محددة لا تكرس المنظور العقلاني والتأصيل الفلسفي العميق لفكر الحداثة[1].

بتسليط بؤرة الاهتمام علي العالم العربي، وتحديداً فيما يتعلق بالتفسيرات الراهنة، والمواقف المتبلورة بخصوص الدراسات المستقبلية، نستطيع أن نلحظ بعض الإشكالات الرئيسة في هذا الخصوص، والتي يجب التعامل معها بموضوعية تامة، خاصة بعد ادراك أهمية الدراسات المستقبلية، بوصفها ميداناً مغايراً لم يعد ملائماً تجاهله، أو غض الطرف عن دوره المنتظر، في سياق عمليات التغيير السريع في المجتمعات والحياة المعاصرة، والحاجة لوضع خطط مستقبلية تعتمد على أسس علمية لمجابهة هذا التغيير، وهي المسألة التي تفسر سعي العديد من الدول والمؤسسات علي الصعيد العالمي في الغرب، لتطوير قدراتها بشأن معرفة مستقبل الظواهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية والمجالات التقنية بشكل علمي مدروس، فضلاً عن أن مثل هذه الرؤية تساعد دون شك علي تجاوز بعض وجهات النظر السلبية تجاه المستقبل. ففي البداية ظهر نوع من الدراسات المستقبلية المتأثر بالسحر والأساطير الخرافية والعالم الماورائي والظواهر غير الطبيعية، وفي مرحلة لاحقة ظهرت الدراسات العلمية المعتمدة علي الخيال العلمي، وهو خيال يستند إلى حقائق كونية أو تاريخية غالباً ما يقدم على شكل روايات، وأفضت تفاعلات عديدة في هذا الإطار، إلي بروز الدراسات العلمية المتخصصة في معرفة المستقبل[2].

الخاتمة

إنّ الحاجة إلى الدراسات المستقبلية في الفكر العربي تفرضها الوضعية التاريخية للعرب في القرن الواحد العشرين وموقعهم من الحضارة الإنسانية، فالاهتمام بالمستقبل ليس من باب الترف الفكري البرجوازي، ذلك أنه من الضروري التركيز على عناصر الحركة العامة في عالمنا المعاصر التي تفرض علينا عدم فصل أو انفصال العرب عن منطق التاريخ المعاصر، بهدف إدراك حقيقة وعمق الروابط بين العرب والغرب، فالمجتمع

[1] فادي إسماعيل، الخطاب العربي المعاصر: قراءة نقدية في مفاهيم النهضة والتقدم والحداثة، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1991، ص91.

[2] على المؤمن، "المستقبلية ورهانات التحكم بعالم الغد"، المستقبلية، العدد الأول، صيف 2000، ص ص 5-16

العربي، من هذا الجانب، لا يخرج عن كونه منظومة في جدلية وصراع مستمرين مع نظام عالمي أوسع وأعقد وأكثر إلماماً بمتغيرات المستقبل، فعالمنا المعاصر سريع التغير في الحقيقة في المجالات المادية والمعرفية والتقنية والفنية، ولعل أخطر مهمة يواجهها الفكر العربي المعاصر بكل فروعه وآلياته، هي في الان نفسه نقد المنظومات الغربية ودراسة التراث العربي لتحديد ملامح المستقبل وتأسيس أو إعادة بناء الشخصية التاريخية العربية، والأخذ بالعقلانية العلمية والإبداع، نظراً للتحديات الكبرى المفروضة على الوطن العربي من العالم الصناعي الذي وصل إلى عصر ما بعد التكنولوجية، بعد جهد من تطوير العقل وتقنين طاقاته وتنميتها وصولاً إلى المنهجية والمنطق والتحليل الجدلي للواقع[1]. يخطيء من يظن ان توسيع رقعة الثقافة المستقبلية مسألة وقت يحسمها الزمن تلقائيا وليست بالتالي بحاجة الى ارادة واعية تحرك الشروط الموضوعية التي ينطبخ على نارها تيار الثقافة المستقبلية وتتنوع روافده ومن هنا نرى بان تحديث الفكر والعقل والتعليم وتجديد الخطاب الديني والاصلاح اوالتطوير المؤسساتي والاداري والتنظيمي واستكمال منظومة المعارف الحديثة والانخراط في سياق الثورة العلمية والمعرفية وبناء ثقافة وطنية ديمقراطية وليبرالية تحترم حق الاختلاف والتنوع وتؤمن بالتسامح وتعترف بالحقوق السياسية والدينية والعرقية والثقافية للآخرين كلها شروط موضوعية لتشكيل لوحة الثقافة المستقبلية التي من دونها لن تقوم للدراسات المستقبلية في عالمنا العربي قائمة ويصبح قدرنا الوحيد وصناعتنا الوحيدة هي الاكتفاء بمحاولة اعادة انتاج الماضي فحسب.

إنّ المهمة الكبرى المطروحة على الفكر العربي المعاصر حيال المستقبل والتحديات المعاصرة تكمن فيها يمكن أن نسميه ابتداع رؤية عربية استشرافية للمستقبل كعملية شاملة واعية وحركة مستمرة ونقدية. ولا يمكن أن يحصل ذلك إلا من خلال تفهم تاريخي نقدي عقلاني عميق للتراث واستيعابه، وكذلك فهم حقيقي دقيق لحقائق ومعطيات العالم المعاصر بكافة إمكاناته وتعقيداته، وفي هذين الطرفين لابد من الشجاعة والقدرة على فهم الواقع العربي الراهن بمعوقاته وإمكانياته الذاتية وما يحيق به من أخطار وتهديدات خارجية، وكذلك لابد من إعطاء الاهتمام الكافي لحاجات هذا العالم العربي الحقيقية الراهنة والمستقبلية[2].

[1] خير الدين حسيب، "مستقبل الأمة العربية: التحديات والخيارات"، التقرير النهائي لمشروع استشراف مستقبل الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، 1988.

[2] انظر فؤاد زكريا، العقل العربي والتوجه المستقبلي الفكر العربي المعاصر، عدد 12، بيروت، 1981 ص.ص. 26 -34.